العوامل التأريخية لنشأة مدارس الزهد في المشرق الإسلامي وأثرها على ظهور التصوف

Historical factors for the emergence of ascetic schools in the Islamic East and their impact on the emergence of Sufism

د. عبد الرضا حسن جياد الحسيناوي

كلية التربية / جامعة القادسية

Dr. Abdul Redha Hassan Jiyad Al-Hussainawi

College of Education / University of Al-Qadisiyah

ملخص

هذا البحث تبيان لزهد المسلمين بأمور الدنيا، وتحقيرهم أياها، والتقليل من شأنها، وعدم تأثرهم بزخرفها ومباهجها، وترجيحهم ما نصته فيم السماء والاهتداء بها، وتسديد الخطى نحو التوفيق في اليوم الآخر، والفوز برضى الله عز وجل. فالزهد بالدنيا هو الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة وهذا ما يتمناه كل مسلم آمن بالله وبسنة رسوله الأكرم (ص).

أن الزهد الإسلامي ولد مع ولادة الإسلام وكان ومازال من مكارم الأخلاق، عززه وأرسى دعائمه نبينا محمد (ص)، وظهر الزهد إسلاميا وجزءً من عقيدة سمحة جوهرها الأخلاق والعدالة والمساواة بين أبناء المجتمع الواحد، وهذا ما أمر به الصحاب الكرام، كما امنوا بمبادئ دينهم الإسلامي الحنيف.

الكلمات المفتاحية: عامل، مدرسة، زهد، مشرق، تصوف.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠ الدولي

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

Abstract

This research shows the Muslims' asceticism in worldly matters, their belittling of them, their underestimation of their importance, their lack of being affected by their adornments and pleasures, their preference for what is stated in the heavens and their guidance by it, and their firm steps towards success on the Day of Judgment, and winning the pleasure of Allah Almighty. Asceticism in worldly matters is righteousness in this world and success in the Hereafter, and this is what every Muslim who believes in Allah and the Sunnah of His Noble Messenger (may Allah bless him and grant him peace) desires. Islamic asceticism was born with the birth of Islam and was and still is one of the noble morals, strengthened and established by our Prophet Muhammad (may Allah bless him and grant him peace), and asceticism appeared in Islam and is part of a tolerant belief whose essence is morality, justice, and equality among the members of one society, and this is what the noble companions (may Allah bless him and grant him peace) commanded, just as they believed in the principles of their true Islamic religion.

Keywords: Worker, school, asceticism, bright, mysticism.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

مقدمة

هذا البحث تبيان لزهد المسلمين بأمور الدنيا، وتحقيرهم أياها، والتقليل من شأنها، وعدم تأثرهم بزخرفها ومباهجها، وترجيحهم ما نصته فيم السماء والاهتداء بها، وتسديد الخطى نحو التوفيق في اليوم الآخر، والفوز برضى الله عزوجل. فالزهد بالدنيا هو الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة وهذا ما يتمناه كل مسلم آمن بالله وبسنة رسوله الأكرم (ص).

أن الزهد الإسلامي ولد مع ولادة الإسلام وكان وما زال من مكارم الأخلاق، عززه وأرسى دعائمه نبينا محمد (ص)، وظهر الزهد إسلاميا وجزءً من عقيدة سمحة جوهرها الأخلاق والعدالة والمساواة بين أبناء المجتمع الواحد، وهذا ما أمر به الصحاب الكرام كما امنوا بمبادئ دينهم الإسلامي الحنيف.

لقد نمى و انتشر الزهد على هذه الأسس وظهرت له مدراس كبرى لكل منها فلسفتها وطرقها، موزعة في أقاليم الدولة العربية الإسلامية، وقد تركت آثاراً ايجابية على مجتمعاتها، من خلال اعتمادها على ما نصه القرآن الكريم وما أكدته السنة المحمدية الشريفة.

ففي مدرسة المدينة سارت هذه الانطباعات سيراً متدرجاً أدى إلى نهج الزهد واكتماله في عصر الخلافة وظل ذلك المنهج أساسا لتلك المدارس، ومقاوماً لكل المؤثرات حتى انتقال مركز الخلافة إلى دمشق في العهد الأموي بعد ذلك ظهرت مدرسة البصرة حيث تميزت بتطويرها نزعة الخوف إلى الحب الإلهي لأنهم كانوا يحسون بثقل الاثم الذي عانوا منه، وجمعت هذه المدرسة بين الخشونة الزاهدة الصلبة القاسية، وبين الترف القائم العائم في القداسة الشهوانية.

أما مدرسة الكوفة في الزهد الذي كان ذو شكل متميز مستقل عن الزهد الإسلامي بسبب الظروف السياسية التي مرت هذا المصر الإسلامي، وظروف نشوء الكوفة بالقرب من مركز مسيحي سابق هو الحيرة مركزاً لتجمع نصارى "نجران" التي نزلت بحقهم سورة المباهلة، فظروف الكوفة أيقظت ضمير الكوفيين وأشعرتهم بذنوبهم بقتل إمامهم الحسين بأيديهم ظلماً. ذلك الإمام الذي دعوه لينصروه، ويكون خليفة، وهو ابن خليفتهم الذي جعل بلادهم (الكوفة) عاصمة للإسلام.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

جميع هذه المدارس أسهمت في تطور حركة الزهد الإسلامي والفكر العربي الإسلامي معاً منذ ظهور الإسلام حتى بواكير القرن الثالث اله.

مدرسة المدينة

لا شك إن الإسلام وفر بكفاية العناصر الجوهرية لنشوء الزهد الإسلامي، وقد سد حاجة العرفان الصوفي، وان النصوص القرآنية والحديثية التي اضطلعت بها المهام لا تكاد تدع زيادة للمستزيد، حيث ترك الإسلام انطباعاته في الجيل الأول، ونرى ان هذه الانطباعات سارت عبر التاريخ سيراً متدرجاً أدى إلى مرحلة النضج والاكتمال. وهنا يمكن استبعاد المؤثرات الأجنبية، ووصول التصوف الإسلامي إلى ما وصل إليه في القرن الثالث الهجري كان معتمدا على قوى الدفع الإسلامي خلال العصور، وعلى عوامل داخلية في بيئة المسلمين[١].

وكان يؤكد أنماط السلوك التي تتميز بسمات خاصة في بدايتها، وسيلتها وغايتها الزهدية، الأشعار التي أنشأها و انشدها الزهاد العباد التي صورت آراءهم في الحياة والناس وفي المجاهدات والرياضات والمعارف التي تحقق لهم من خلال ذلك.

وروى عن النبي (ص) قوله: (ولكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد)، والمعروف من سيركبار بعض المجاهدين في الإسلام إن الجهاد ينظر إليه بنفس النظرة التي نظر بها فيما بعد بالزهد ومميزات هذا الزهد هو التعبد والأخلاق. (وقد ظهرت في هذه الحقبة مدارس المدينة، والبصرة والكوفة على التوالي)[٢]. فمدرسة المدينة كان منهجها مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية. وكان النبي (ص) وصحابته المثال لذلك المنهج وزهاده الصوفيين والمسلمين. وظل ذلك حتى انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق وحتى العهد الأموي وظل الأتقياء متمسكين بذلك المنهج وقاوموا كل مؤثرات أتتهم.

وكانت طوائف الزهاد والعباد والتائبين الذين حفل بهم القرن الأول الهجري وحتى القرن الثاني الهجري كان أهل عمل ومجاهدة أكثر من أهل قول ونظر. ومن هنا قلت أشعارهم وقصرت أنفاس نشرهم لكنها كانت كافية لتعريفنا على مذاهبهم. فما انتهى العصر الأموي إلا وكان المذهب واضح الاتجاه بارز القسمات وكانت قد ظهرت في عهد الرسول الكريم (ص) نماذج من العباد والزهاد وتميزت بالحرص والتشدد والحمل على الجسد والتقشف و إبعاد النظر عن الدنيا باتجاه الآخرة. ومن ذلك ما

العدد: ٤
السنة: ٣
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

كان يفعله عبد الله بن عمر الذي كان يصوم النهار ويقوم الليل ويختم القرآن كله في ليلة[٣].

وكانوا بصورة عامة أهل دين وزهد وورع، حيث كانوا يرون الرسول (ص) وحياته كلها زهد وتقشف وقد نظر جمهور الصحابة إلى حياة رسول الله (ص) وقلدوها وكانت حياة الزهد والتقشف التي يحييها الرسول (ص) ليس بسبب الفقر و إنما ليساوي نفسه برعاياه. وهذا ما سار عليه من بعده الخلفاء الراشدون، ونلتمس هذا جليا في سيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان يحكم بلاد متراكمة الأطراف وهو يرتدي لباس الورع والزهد وترك الدنيا[٤].

على أننا نلتمس هذا واضحا في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ الذي لا يختلف فيه اثنان في زهده وورعه وسمو النفس ونكران الذات. حيث يصف لنا ذلك ابن أبي الحديد بقوله وإما الإمام علي ﷺ (بالدنيا فهو سيد الزهاد وبدل الإبدال واليه تشد الرحال، وعنده تنفض الاملاس، ما شبع من طعام قط وكان اخشن الناس مأكلاً وملبسا)، قال: عبد الله بن أبي رافع (دخلت إليه يوم عيد فقدم جراباً مختوما فوجدنا فيه خبز شعير يابس مرضوضاً. فقدم فأكل، فقلت يا أمير المؤمنين فكيف تختمه. قال: خفت هذين الولدين ان يلقياه بسمنٍ أو زيت، وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وبليف أخرى، ونعلاه من ليف وكان يلبس الكرياس الغليظ)[٥].

ومن يتصفح نهج البلاغة ويقرأ خطب الإمام علي ﷺ يجد نماذج واضحة للزهد الإسلامي حيث يقول: (أما بعد فان الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع. وان الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع إلا وان اليوم المضمار، ونجد السباق والسبقة الجنة والغاية النار، أملاً من ثاب خطيئته قبل عتبته إلا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه..)[٦].

والإمام علي (ع) يبتغي في هذا اللون الوعظ ليعرف الناس مو اقعها ليزهدوا في الدنيا، والزهد الذي يريده الإمام غير الزهد في وعي العامة من الناس. فالزهد في وعي هؤلاء لن يكون موقفا سلبيا في الحياة يشك في الإنسان إمكانيات الخلق والإبداع ويحيله إلى إنسان متذائب واهب، لكنه زاهد في نظر هؤلاء تستدعي صورة كائن اقل ما يقال فيه انه عالة على المجتمع.

وقال عن الزاهدين: أن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً. والماء طيباً وفوضوا الدنيا تفويضاً[٧].

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

وقال عن الجنة ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ر اقب الآخرة سارع في الخيرات.

وقال لابنه الحسن: (يا بني استغن عمن شئت تكن نظيرة، وسل من شئت تكن حقيرة، وأعط من شئت تكن أميره)[٨].

ومن تواضعه وزهده في الدنيا انه دخل عليه أحد من أصحابه قال: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين، قال: أصبحت ضعيفا مذنباً، أكل رزقي و انتظر اجلي، قال: ماذا تقول بالدنيا؟ قال: وما قول في دار أولها غم وأخرها موت، من استغنى فيها نتن. ومن اقتصد فيها حزن، حلالها حساب، وحرامها عقاب[٩]. وهناك أكثر من صورة وخطبة توضح لنا كيف كانت حياة الإمام علي (ع) كيف حاله من الدنيا.

أن ابرز دليل على تمسك الزهاد بعد انتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق هو سيرة أبو ذر الغفاري (ت:٣١هـ) الذي قضى الشطر الأكبر من حياته زاهداً[١٠].

فقد عد (ع) من الزاهدين الذين لقبوا أنفسهم حراساً على الإسلام. ومن السابقين الأولين[١١] الذين ذكر في التعبير عن صفاء روحه و انه كان موحدا قبل الإسلام[١٢].

ومنهم عماربن ياسر الذي عذب من اجل الإسلام[١٣] ، ثم استشهد في صفين مؤمناً ومصدقاً لنبوة النبي (ص) له بقوله: (تقتلك الفئة الباغية)[١٤] ، وبعد صاحب رسول الله (ص)[١٥].

ولا بد لنا من ان نلقي ضوءً على بعض الصحابة منهم: سلمان الفارسي، فقد اتسمت حياته بالبساطة والزهادة، فقد كان أمير المدائن (على زهاء ثلاثين ألف ومع ذلك يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها، وكان يأكل من شغل يديه، ويستظل بالفيء حينما دار، ولم يكن له بيت)[١٦] ، ومن أقواله التي تنبئ عن حقيقة حاله قوله: أوصاني خليلي المصطفى أن لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الركاب، ويذكر عند نزول هذه الآية القر آنية [وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ] صاح سلمان صيحة ووضع يده على رأسه ثم خرج هارباً ثلاثة أيام[١٧] ، وهذه هي الصعقة عند الصوفية وتتطور هذه الظاهرة فيما بعد وتنتشر في مجالس السماع حين يسيطر الوجود على بعض الذاكرين من الصوفية لشدة شكرهم وفنائهم في الله[١٨].

العدد: ٤
السنة: ٣
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

وبهلول بن ذؤيب يدخل على النبي (ص) وهو يبكي بكاء الثكلى وحين سأله النبي عن سر بكائه قال: (يا رسول الله... لقد ركبت ذنوباً أن يأخذني الله ببعضها... خلدني في جهنم ولا أرى إلا انه سيأخذني...)[١٩] ، ثم يمضي إلى الجبال مرتديا مسحاً فيضل يده إلى عنقه بالحديد ينادي: (يا الهي وسيدي ومولاي.. هذا بهلول مغلولاً مسلسلاً معترفاً بذنوبه)[٢٠]... والحولاء بنت ثويت كانت تقيد نفسها بحبل حتى لا تغلبها غفلة النوم وتقطع عبادتها.. وحين حدثت عائشة ﵂: (عليكم في العمل ما تطيقونه فان الله لا يمل حتى تمل وأحب العمل إليه، دوامه وان قل)[٢١].

وعن انس قال: (دخل الرسول المسجد فإذا بحبل ممدود بين ساريتين فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: لزينب إذا فترت تعلقت به، فقال النبي: لا... حلوه ليصل أحدكم نشاطه... إذا فتريقعد[٢٢] وربط أبو لبابه نفسه إلى سارية مسجد في المدينة وبقاؤه على هذا الحال حتى عودة الشعور إليه بان الله غفر له لشعوره بالخطيئة)[٢٣].

نموذج أخر للزهد هو الربيع بن الخيثم، الذي كان يحمل حملاً للصلاة، وهو مصابا بالفالج، وقد قيل له: قد رخص لك فيقول: قد علمت ولكني اسمع النداء للفلاح.

وذاك وصلة بن أشيم (تابعي) يخرج إلى الجبانة فيتعبد بها حتى يموت[٢٤] وكان يصيح بعدد من كل ميت ويقول:

فان تنجي منها تنج من ذي عظيمة وألا فاني لا أخالك ناجياً[٢٥]

وقد كان شعر الرعيل الأول الذي حفظته المصادر خير معبر عن نفسيتهم إزاء حقيقة زهدهم والاستشهاد في سبيل دعوة الإيمان، و أبان عن زهد شامل كامل في الدنيا، وحب شامل وكامل لله تعالى وكان قد عبر حبيب بن عدي (صحابي) حين استعد القوم لصلبه:

لقد جمع الأحزاب حولي والبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد خبروني الكفر والموت دونه وقد ذرفت عيناي من غير مجزع
فلست أبالي حين اقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي[٢٦]

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

وكانوا الصحابة الأبرار قد سجلوا حسابهم النفسي ومقارعتها ومناشدتها التأسي بالسابقين. عند شعورهم بترددها عند مواجهة الموت، لأنها نفس بشر.

ويقول عبد الله بن رواحه، صحابي:

يا نفس لا تقتلي تموتي هذا جمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ان تفعلي فعلها هديت[٢٧]

وأويس القرني: تابعي ضارب بذقنه إلى صدره، رام بذمته إلى موضع سجوده، واضعاً يمينه على شماله، يتلو القرآن، يبكي على نفسه، متئزراً بازار صوف ورداء صوف مجهول في الأرض، معروف في السماء، لو اقسم على الله لام قسمه[٢٨].

نستنتج من هذه الصورة ومن هذه الرؤية من ان خصائص التصوف في العصور المتأخرة تتسم بالتواضع، والزهد والورع، الصوفي مفرط في التأمل باحث عن المعرفة له الشفاعة، وصاحب كرامة، فلا شك انه هذه التفصيلات من عمل العصور المتأخرة.

فلقد شارك أويس الإمام علي صفين وقتل فيها[٢٩]. فماذا تدل هذه الصورة؟ ليس إلا اختفاء الملامح بصورة صوفية مبكرة.

ومن النصوص القيمة عن أصول التصوف عند زهاد هذا الجيل حديث عون بن عبد الله بن عتبة (تابعي) إلى نفسه وحديث نفسه إليه ويقع هذا الحديث في خمس صفحات في الحلية[٣٠] منها. (ويحييني ان حجبت يوم القيامة عن ربي فلم يزكني ولم ينظر إلي، ولم يكلمني، فأعوذ بنور ربي من خطيئتي)[٣١].

انه تيقظ صادق انه من بوادر تصوف إسلامي كما عده المتصوفة، مرتبط بجذور الزهد الإسلامي، والذي ذكرناه جزء من معان لها تأثير في عرف الصوفية.

ومنها عرفنا كيف أمكن للصوفية تزويد الأدب بفن جديد يمكن تسميته أدب المناجاة[٣٢]. وهكذا كانت جذور التصوف الإسلامي ممتدة إلى مناهل الزهد الإسلامي والزهاد الذين كانوا يعيشون في حياة أخرى داخل حياتهم. يجدون فيها العزاء، ويعيدون إلى القيم ثباتها، والى الأوضاع استقامتها، والى الدين سيطرته. وجدوا في عالمهم هذا آفاقاً رحبة، أراحت أفئدتهم من مشاهد التقتيل والتمثيل والتصليب وأبعدتهم عن تطاحن الأحزاب السياسية والمذهبية، والفتن والحروب الأهلية

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

والقبلية وتعصبها. وبينت لهم الحق وعدم اختلاطه مع الباطل، وضعف إسر افهم في تقدير الدنيا بشكل أنساهم الدين، كان الزهاد قد نهلوا من مدرسة الإسلام كما ذكرنا وأحكام كتاب الله والسيرة النبوية وسنتها الكريمة، وازوروا عن الحياة والأحياء وكان ذلك بدايات الخلوة والانعزال التي تطورت فيما بعد إلى تصوف إسلامي.

تاريخ الزهد في البصرة :

البصرة شقيقة الكوفة فقد مصرت عام ١٦هـ في وقت يقارب من تمصير الكوفة عام ١٧هـ من قبل القائد عتبة بن غزوان[٣٣] وكانت البصرة معسكرا كالكوفة للجيش العربي الإسلامي الفاتح المتجه إلى بلاد فارس لغرض نشر الإيمان ومبادئ القرآن والإسلام.

وكانت عناصرها عربية كالكوفة، وبنيت بالقرب من ميناء الأبلة كما بنيت الكوفة بالقرب من الحيرة وبابل، وصارت البصرة والكوفة تحت حكم والي واحد. وفيما بعد هذا فقد كان فارق بين هذين المصريين واسع جداً[٣٤].

وكان اتجاه الكوفة إيماني قريب الشبه من الغنوسية* أما البصرة فاتجاهها عقليا فلسفيا واضحا، وكان منطلق التحرك الديني في البصرة، ومن هنا وجدنا الأقطار الجديدة تغلب عليها المسحة البصرية[٣٥].

وكانت الكوفة كالبصرة أبدعت في اتجاهاتها النحوية واللغوية لاستغنائها، تطلب المعرفة العادية في هذين العلمين نجد البصرة اعتمدت هذين العلمين على قواعد الاستقراء والتنظيم الذي بدأ من نقطة البدء حتى النهاية. وفوق هذا اقترن تاريخ البصرة بكونها منفى لأصحاب البدع في الإسلام وإليها نفي أول من قال: بالقدر في تبرير سكره من قبل الخليفة عمر بن الخطاب واليها نفي رجل كان يفتن النساء في المدينة[٣٦] ويذكر فيها عادات كانت منطلقة من التفسخ الأخلاقي والاجتماعي في هذه البيئة الإسلامية فضلاً عن وضوح العنصر الفارسي فيها و أثره في تشكيل هذه الظواهر هناك[٣٧] وقبل ان نعرض لملامح الزهد الصوفي في البصرة ينبغي ان نلاحظ في هذه المدينة، إن الشيء الوحيد الذي ذكر عن بعض زهادها يطيلون شعورهم ولا يدخلون الحمام علما ان تقصير الشعر والنظافة من أهم خصائص المسلم.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

إضافة إلى ذلك فقد جمعت البصرة بين طبيعتين (بين الخشونة لزاهدة الصلبة القاسية الإيمان وبين الترف القائم العائم في أوداء القداسة الشهو انية)[٣٨].

وقد تميزت مدينة البصرة بعدة خصائص فقد وصفت بالرفاه الاقتصادي بأنها كانت خير البلاد للجائع، والغريب المفلس، وإذا لاحظنا ان البصرة لم تشارك مشاركة حقيقية في الحروب ولم تعان من ويلاتها، ولم ينصب عليها سخط الدولة مهما أسهم في نمو تجارتها وزيادة ثروتها.

وسادت بها بتقادم السنين أجواء اللهو والترف فقد كانت تضم ألو اناً متقابلات. حيث يصنف ذلك احمد أمين بقوله: إذ كانت مسجد وحانة، وقارئ وزامر، ومتهجد يرتقب الفجر ومضطجع في الحدائق، وساهر في تهجد، وسامر في طرب، وتخمة من غنى، ومسكنة من إملاق، أوشك في دين و إيمان في يقين[٣٩] في حين كانت الكوفة على العكس التي فرضت عليها الذنوب الجماعية واليأس من المغفرة[٤٠].

وقد تأثرت مدارس البصرة إلى حد ما بالثقافة الهندية خاصة من الناحية العلمية من التصوف حين اخذ الصوفية مبدأ تعذيب البدن في الصوم ونحو تطهير النفس والتخلص من آفاتها والصعود إلى عالمها العلوي وفي البصرة ابتعد الصوفية عن الاشتغال بالسياسة وحاولوا إقامة التصوف على أساس عقلي وديني معتمدين على الكتاب والسنة وسيرة الصحابة. و ابرز شخصية في هذه المدرسة هو الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ فقد وصفه أبو نعيم الأصفهاني بأنه (اليف الهم والشجن، عديم النوم والوسن)[٤١] حيث كان الخوف لا يفارقه وقد أعطى الشعر اني وصفا دقيقا لهذه الحالة التي كان يعيشها بقوله: (قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده)[٤٢] وقد عده احد الباحثين انه (صاحب مذهب قوامه الخوف والحزن)[٤٣].

الذي عبر عنه أبو الفيض بأنه (الصوفي الكبير)[٤٤]. وقد وصفه احد أصحابه بقوله (لو رأيت الحسن لقلت قد بث عليه حزن الخلائق من طول تلك الدمعة وكرة ذلك التشنج)[٤٥] وقد كانت آراؤه وتصوراته تنصب كذلك في هذا المجال من نبذ الدنيا والتهيؤ للآخرة حيث يقول: (الدنيا مطيتك إلى الله فان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك)[٤٦]، وهذا يعبر بوضوح في صراع المؤمن مع الدنيا وقد تعلل سبب نبرة الحزن عند الحسن البصري وذلك بسبب ابتعاد الناس عن روح الدين و انغماسهم في اللهو

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

والترف و انصر افهم إلى الدنيا فكان يقارن ما كان عليه السلف الصالح وما آلت إليه الأمور في عصره فيقول: (لقد أدركت أقواماً ما أنا عنده إلا لص)[٤٧] لذلك نلاحظه حسبما تذكر الرو ايات التاريخية انه: (مكث ثلاثين سنة لم يضحك وأربعين سنة لم يمزح)[٤٨].

مما تقدم نلحظ إن بوادر الزهد الصوفي قد أخذت تنضج شيئا فشيئاً وان لم تظهر كتيار منظم له أسسه ومميز اته وقواعده كما ظهر بعد ذلك وبصورة جلية خلال العصر العباسي وتحديد بدايات القرن الثالث الهجري. والشيء المهم الذي نحاول ان نذكره ونؤكد عليه انه نزعة الزهد هي البذور الأولى للتصوف على ان المسلمين في صدر الإسلام والتابعين وممن ظهر فيه بعد ذلك نزعة الزهد والتقوى والورع ونبذ الدنيا ومتاعها لم يكونوا كما يتصور البعض ولم يضعوا تعبيرات واصطلاحات خاصة بهم. وأهم من كل ذلك انه لم يكونوا له اسم خاص وان اسم الصوفي حكمة التصوف والعرفان من اصطلاحات المرحلة التالية[٤٩].

ويمكن ان نعد هذا العهد عصر نهضة التصوف الإسلامي الأولى حسبما لمسناه واضحا وجليا خلال الصفحات السابقة في بحثنا هذا، ولان هناك فرقا واضحا بين التصوف والزهد. في الزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة، والتصوف زهد في الدنيا لكسب رضا الله، والزهد دخول في مجال التقوى خوفاً من عذاب الله ونقمته وجبروته، والتصوف دخول في مجال الملأ الأعلى وروحه ورحمته، والزهد مناهج العمل والتصوف فلسفة روحية في الإسلام لذا نرى انه من الصعوبة ان نضع في مكان فواصل زمنية بين المراحل المتتابعة للحركة الروحية في الإسلام وتتابعها، أضيف إلى ذلك ان التطورات الفكرية أمر لا يمكن إخضاعه لعامل الزمن كما ذكرت سابقا ان بوادر ظهور تحولت نزعة الزهد بملامحها وخصائصها حسبما أشار عفيفي إلى أخريات القرن الثاني الهجري[٥٠] أي ان القرن الثالث الهجري هو بداية علم التصوف بمعناه الديني[٥١].

وهكذا ظهر الاختلاف منذ بداية الأمر بين الزهد الكوفي والبصري وذلك في طبقة الزهاد الوعاظ الذين كانوا يروعون الناس عن الوقوع في مزيد من المحرمات ومعناه خروج واضح عن المثل الإنسانية وقد مثل الوضوح الزهدي في البصرة واعظان مشهوران هما مالك بن دينار المتوفى سنة ١٣٨هـ* والثاني عبد الواحد بن زيد المتوفى

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

سنة ١٧٧هـ** حيث كان مالك بن دينار مؤثراً في وعظه جداً ذكر ان خمسا من حضار مجالسه ماتوا تأثرا بكلماته الوعظة، وقد ذكر ان عبد الواحد وصف بالحزن وقد انصب وعظه على التخويف من النار بتجسيمها والمبالغة من تقريبها إلى الأذهان ومن أقوال في هذا المجال: (يا أخو اتاه إلا تبكون إلى الله عزوجل، إلا ان من بكى شوقا على سيده لم يحرمه النظر إليه؟ يا اخوتاه. إلا تبكون خوفا من شدة العطش يوم القيامة؟ إلا تبكون ما بكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله يسقيكموه في حضائر)[٥٢].

مدرسة الكوفة: تاريخ الزهد في الكوفة:

يشكل الو افدون في الكوفة أغلبية عربية جلهم من مستوى حضاري[i]. الكوفة في حضارتها[٥٤]، أصيلة، هاضمة، لا مقلدة كالبصرة[٥٥]، تنعكس فيها الطبيعة العاطفية[٥٦] والحكمة[٥٧]، والابتكار. اتصف بها العنصر اليماني خاصة[٥٨] ، دليلا على ذلك ان القبائل التي أصولها يمانية متحدة فلم تؤثر على المجتمع الكوفي المسلم بقايا للديانات الفارسية القديمة[٥٩]، التي سرعان ما انهارت أمام عظمة الإسلام كالمانوية والمزدكية والزرادشتية، والمندائية)[٦٠].

وقد اتصفت الكوفة بالأصالة العربية، فقد كان اليمانيون على جانب كبير من الحضارة، وقد أتاح لهم ان يتغلبوا على الآثار الواردة إلى الكوفة من الحضارة الأجنبية وان يهضموها[٦١].

وقد أسهم عدد كبير من الصحابة والتابعين في نشوء حركة الزهد في الكوفة وقد يكون في مقدمتهم الإمام علي ﷺ الذي أرسى القواعد الأولى للزهد في مدرسة الكوفة وذلك من خلال خطبة التي ألقاها في مسجد الكوفة، وبعد استشهاده سنة ٤٠هـ وكان هناك عدد من الصحابة أمثال عبد الله بن مسعود الذي له الفضل الكبير في تأسيس مدرسة قراءة القرآن وتفسيره باعتباره أستاذها الأكبر[٦٢] وعلى يده تكونت طائفة القراء في الكوفة، وقد أسس أول حلقة قرآنية فيها[٦٣] ، وقد بث إبن مسعود مواعظه وأحاديثه في أجواء الكوفة مؤكداً لهم قصر الآجال فيقول: (من أراد الدين اغتر بالآخرة، ومن أراد الآخرة اغتر بالدين، فدعوا اليوم الفاني). وقوله: (لو وقفت بين الجنة والنار فقيل لي اختر من أيهما تكون أحب إليك أو تكون رماداً، لاجبت أن أكون رماداً)[٦٤] ومن الصحابة أيضا حذيفة بن اليمان (ت:٣٦هـ) صاحب رسول الله وقد

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

ولاه عمر المدائن[٦٥] ، وعاش في المدائن والكوفة عيشة تمثلت بالبساطة والزهادة ودليل على ذلك قوله: (أحب يوم أكون فيه حين يأتي أهل بيتي فيقولون ما عندنا شيء ناكل لا قليل ولا كثير)[٦٦] وقد عرف عن حذيفة انه من البكائين حين أبلى في صلاته، وقلما فرغ التفت، فإذا رجل خلفه فقال: لا تعلمن بهذا احد[٦٧].

ومما هو معروف ان البكاء سيغدو فيما بعد سمة جوهرية من سمات الزهد وهنا أمر لا بد من الإشارة إليه، إذا لاحظنا عمق الشعور لدى الصوفيين في عصر الإسلام وكذلك التابعيين، حيث حاولوا ان يضعوا ترابطاً ما بين هذين العنصرين، حيث وضعوا سلسلة من سلاسل التصوف يظهر فيها حذيفة بن اليمان وبين الرسول (ص) والحسن البصري[٦٨]، وهذا يعلل بمكانه حذيفة في نظر الصوفية، مع العلم انه لا توجد أي صلة تاريخية بين حذيفة والحسن البصري.

وكان أول من وصف بالصوفي هو جابر بن حيان الكوفي (ت:٢٠٠هـ)[٦٩] وكان بالكوفة، حيث كان مجتمعه قد شعر الألم بعد استشهاد الإمام علي من اجل مبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف، وبعد استشهاده شعر الكوفيون ولمسوا فراغاً بفقده وظهرت هيمنة الأمويين عليهم بعد تنازل الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية و ابتعاد ابن الحنفية عن الصراع السياسي[٧٠] وكانت الكوفة قد عانت من حالة نفسية حيث ظهرت أول حركة للزهد بالكوفة هي حركة التوابين: هي حركة ذات دستورديني بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، وكان شعار التوابين (ربنا اقلنا عثرتنا فقد تبنا)، وعندهم شعار كصورة أولى (و اقتلوا أنفسكم ذلكم خيرلكم) لهذا ثاروا على الدولة الأموية بعد قتل الإمام الحسين فظهرت لديهم عزيمة قوتهم على الانتماء الديني مصدقا للآية التي جعلوها شعاراً [فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ] وان الصورة الثانية للزهد الكوفي هي المقاومة السلبية ولبس الصوف وفي عهد يزيد بن عبد الملك الأموي جعلت الدولة (الخز) لباس واجبا على الرعية حتى يراجعوا الدوائر الحكومية وكان البلاط الأموي بمن فيه يرتدي (الخز) وكان هذا النسيج يؤتى به من الكوفة ثم من اليمن والإسكندرية في هذا الوقت[٧١]. كان الكوفيون قد خارت عزائمهم واظهروا فريقا من المعارضة والمقاومة، وكانوا قد استغلوا فرصة ترويج الدولة قماش (الخز) فاندفعوا يلبسون النسيج المناقض له وهو نسيج الصوف وبهذا صار لبس الصوف شعاراً للزهاد في الكوفة وكذلك المتقين المتدينين. و ذكرت المصادر بان قوماً من زعماء

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

الحركة الدينية في الكوفة كانوا يلبسون (الخز) فوق ثياب من الصوف يريدون بالأولى مجاملة الدولة ومجاراتها، ويريدون بالثانية التقوى والفلاح وبهذا كان الصوف شعاراً للتصوف ومظهراً من مظاهر التصوف الكوفي[٧٢]. أما الصورة الثالثة للزهد الكوفي فهي ظاهرة الرعب من عذاب الآخرة، وقد تمثل في جماعة كبيرة من زهاد الكوفة شغلهم الخوف من النار عن ممارسة حياتهم الطبيعية[٧٣] فلقد عدد مشاغلهم الثقافية.

وخفت هذا الشعور الجارح، وقد علل أبو سفيان المتوفى ١٦١هـ: انشغاله بجمع الحديث لخوفه من الجنون. ان ترك وحده ويفكر في أمر العقاب. وقد قال قائل من زهاد الكوفة في هذا المجال: إني لا اذكر شيء من أمر الدنيا لإلهي به نفسي عن ذكر الآخرة، خاف عن عقلي. وكانت النتيجة اندفاع زهاد الكوفة إلى المقابر، والإيمان بمقولة مجاورة الأموات أجدى من مجاورة الأحياء[٧٤].

فالأموات لا يمارسون ولا يسمعون، ولا يخونون وقوله هذا لقد برزت عند زهاد الكوفة فكرة استحباب شدة النزع للأموات. أخاف ان يشدد علي فاسئل ماذا أجاب فافتن فإذا قارنا هذا الموقف بموقف مماثل ذكر عنه النظام المتكلم المعتزلي بدا لنا الأثر الاجتماعي الذي خلفته ظروف الكوفة في الزهاد فقد ذكر النظام انه كان يقول وهو يجود بنفسه: اللهم ان كنت تعلم إني لم اقصر في توحيدك، اللهم أو لم اعتقد مثلا إلا وستره توحيدك، ان كنت تعلم ذلك مني فاغفر ذنوبي وسهل علي سكرة الموت... قالوا: فمات في ساعته[٧٥] وقد كانت هذه المعاناة الجماعية في الكوفة سببا في أبراز ظاهرة اجتماعية تبناها الزهاد خاصة، وهي التطاول إلى رؤية الأموات، للاستفهام منهم عن مصائرهم ومحاولة منهم للاطمئنان على مصائر أنفسهم، وقد جاءت الأخبار ان زاهد كوفي مات، فرآه صديق له في المنام. وسأله عما لقي. فقال: يصف الآخرة دار لا ينتقل أهلها عنها ولا يموتون وقال أخر إني وجدت الآخرة أفضل مما تحسبون[٧٦].

اتصف الزهد الصوفي الكوفي بالقلق النفسي الجماعي و الشعور الجماعي بالألم و القلق بالعذاب النفسي و لبس الصوف و الانسحاب الاجتماعي والتعبد بالمقابر[٧٧].

هذه الفكرة العامة عن الزهد في الكوفة من ناحية الصوفية ففي الكوفة استقرت مجموعة من الزهاد والذين صاروا زعماء التصوف فيما بعد، أشهرهم جابر بن حيان، أبو هاشم الصوفي وسفيان الثوري.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

جابر بن حيان الكوفي[٧٨]:

يعد جابر بن حيان* في الإسلام أول من لقب بالصوفي لتعمقه في العلوم التطبيقية في زمانه لا على أساس الزهد المعروف في زمانه، واشتهر خاصة في الكيمياء، ولقب جابر بالصوفي لان في فهم بعض الباحثين: ان كلمة صوفية مشتقة من الحكمة اليونانية (سوفيا) لا الصوفي المقصود، وذلك لقب علماء الفلك بالصوف أيضا بناء على تعمقهم بفهم أسرار الكون. كما تعمق جابر بأسرار العناصر. وان أبا هاشم الصوفي المعاصر لجابر بن حيان من أوائل متصوفة الكوفة.

يذكر الخوارزمي أن كلمة الفلسفة اليونانية وهي (فيلاسوفيا) وتفسيرها محبة الحكمة فلما عربت قيل فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة[٧٩].

الزهد الصوفي عند المرأة المسلمة:

في أواخر القرن الثالث الهجري ظهر ميل إلى تحديد الغاية وبدأ الصوفيون يصنفون ويركزون أنظارهم باتجاه معين، وهذا ما نجده واضحا في سيرة رابعة العدوية (ت:١٣٥هـ) حيث تعد مثال في القرن الثاني الهجري لهذه الظاهرة التي تذكر في حب الله ولهذا استحقت بحق العشق الإلهي، وذلك لأنها استجمعت قلبها وهمتها في المحبوب. ووهبت حياتها لأنها استجمعت قلبها معه. ووهبت حياتها له، وصرفت أحاديثها إلى معاني هواه، وجردت هذا الهوى عن كل شريك.. ونقته من كل غرض وقد كان لها دور بارز في مسيرة حركة الزهد فقد (أخرجت الحياة الروحية عن هذا الزهد الذي قوامه الخوف من النار والشوق إلى الجنة وجعلته نوعا أخر أساسه الله وطاعته والأنس به والشوق إليه)[٨٠].

لقد حولت رابعة مجرى حركة الزهد من زهد مع خوف إلى زهد وحب الله، لذاته دون أي طمع في جنة أو خوف من نار، وبذلك قالت عندما سئلت عن حقيقة إيمانها أجابت: (ما عبدته من خوفا من نار ولا طمعا لجنة فأكون كالأجير السوء، عبدته حبا له وشوق إليه)[٨١]. وكانت بداية هذا الحب الرائع عندها زهادة كاملة في الدنيا والناس (إني لأستحي ان سألت الدنيا من يملكها؟ فكيف اسألها من لا يملكها[٨٢] بل زهدت فيما عند الله من مغانم).

وقد صاغت هذه المعاني شعر وارتقت بها في قمم الأمل والرجاء والأمن والأنس والرضا والحب حيث تقل[٨٣].

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

يا سروري ومنيتي وعمادي ... وانيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي ... أنت لي مؤنس وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وانسي ... ما تشتت في فسح البلاد
كم بدت منه وكم لك عندي ... من عطاء ونعمة وايادي
حبك الآن بغيتي ونعيمي ... وجلاء العين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حييت سراج ... أنت مني مملكن في السواد
ان تكن راضياً عني فأني ... ما منى القلب (مدبراً اسعادي)

ورابعة العدوية، كما يدل نسبها، عربية الأصل، كانت من أعيان عصرها، مات أبوها وهي صغيرة، وحدثت مجاعة في البصرة، بيعت بسببها، وقد حمدها سيدها لكثرة صلاتها وسهرها الليل. وقد ماتت سنة ١٣٥هـ[٨٤] فهي عربية الأصل وفلسفتها بالحب كانت مزاجاً من إيمان عشقها الإلهي. ونتيجة إفراطها بالعبادة فضلاً عن طبيعتها النسائية، وقد ذكر إنها كانت تقول في مناجاتها (الهي تحر بالنار قلب يحبك)[٨٥] ، فهتف هاتف يقول (ما كنا نفعل هذا فلا تظنين بنا ظن السوء).

ويروى إنها قابلت الحسن البصري وسمعت منه، والذي يقارن بينهما يجد ان الحسن البصري مليئاً بالخوف ومغموراً فيه. ويجدها أي رابعة العدوية مغمورة بنزعة الحب، ولا شك ان نزعة الحب أرقى من نزعة الخوف، ولم يكن حبها متأثراً بثقافات وإنما هي وجدتها في نفسها[٨٦]. لقد كانت رابعة العدوية أول من تجرأت على معجم الحب الإنساني المتدين ودفعها إلى مرتبة الحب الإلهي[٨٧] وهي في نفس الوقت السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي ويذكر حلمي ان رابعة العدوية قد فتحت صفحة جديدة في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية ومن ثم أخذت لفظة الحب تشيع بين الزهاد والعباد المعاصرين لرابعة وتظهر واضحة قوية عند الصوفية[٨٨].

ومن الزاهدات شعوانه قد كانت تبكي وتنشد بحب الله. لقد امن الغرور دار مقامه ولا شك ان يوما ان يخاف كما امن[٨٩] ومنهن ميمونة السوداء التي سخرت من الواعظ والوعاظ[٩٠] والتي من كراماتها أن تركت الشياه ترعى بجانب الذئب ولما سئلت في ذلك قالت: لقد أصلحت ما بيني وبين سيدي فأصلح بين الذئاب

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369
Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

والغنم[٩١] ومنهن حيوته التي كانت تقول (الهي وددت ان النهار ليل حتى أتمتع بقربك) وكانت تنشد:

وليس للميت في قبره قطر ولا أضحى إلى عشر

وعندما نعاها إبراهيم بن أدهم قالت البكاء قد ترك خطاً بخدها وعند ذكرها الآخرة قالت:

من كان راكب يوم ليس يأمنه وليلة نالها في عقب دنياه
فكيف يلتذ عيشاً لا يطيب له وكيف تعرف طعم الغمض عيناه

ولها أيضاً:

بوجهك لا تعذبني فانني أمل ان افوز بالاخرة
و أنت مجاور الأبرار فيها ولولا أنت ما طاب المزار[٩٢]

هذه لمحة موجزة عن الزهد عند المرأة المسلمة التي تنم عن أصالة إسلامها.

مجلة كلية الفقه
العدد: ٤
السنة: ٣
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

الهوامش

(١) بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص٨٨.

(٢) عفيفي، التصوف والثورة الروحية، ص٨٣.

(٣) ابن سعد، أبو عبد الله محمد، ت ٤٣٠هـ، الطبقات الكبرى، دار صادر، ١٩٦٩ ٩/٤-١٠.

(٤) غني، قاسم، تاريخ التصوف في الإسلام، ص٣١.

(٥) عز الدين أبي عبد جاهد عبد الحميد بن هبة الله المعتزلي (ت:٦٥٦هـ) شرح نهج البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ، ٨/١.

(٦) المصدر نفسه، ١٤٦/٣.

(٧) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت:٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٤، ٤٣٢/٢-٤٣٣.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) عفيفي التصوف والثورة الروحية، ص٨٣.

(١١) الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ١٨/١.

(١٢) ابن سعد، الطبقات، ١٦٣/٤.

(١٣) البلاذري، انساب الأشراف، مطبعة النقرشتي، ١٩٣٨، ص٤٨-٤٩.

(14) ابن سعد، الطبقات، ١٨٠/٣.

(١٥) الطوسي، اللمع، ص١٤.

(١٦) الشعراني، عبد الوهاب بن احمد (ت:٩٧٣هـ)، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأخبار في طبقات الأخبار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٧٣هـ، ٢٣/١.

(١٧) الطوسي، اللمع، ص١٩٥.

(١٨) شرف، محمد جلال، خصائص الحياة الروحية في مدرسة بغداد، دار الفكر الجامعي، مصر ١٩٧٧، ص٣٧.

(١٩) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢١٠/١-٢١١.

العدد: ٤
السنة: ٣
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

(20) ابن سعد، الطبقات، ٣١/٧.

(٢١) الأصفهاني، حلية الأولياء، ٦٥/٢.

(٢٢) الفركاوي، شرح منازل السائرين للأنصاري، طبع المعهد العلمي الفرنسي للآثار، مصر، ١٩٥٣، ص٤١.

(٢٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١٢٧/٢.

(٢٤) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ٢٣٨/٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ٢٣٨/٢.

(٢٦) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، (ت:٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، طبع حيدرآباد، بلا تاريخ، ص١٦٧، العسقلاني، الإصابة، ١٠٣/٢.

(٢٧) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، ١١٩/١.

(٢٨) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ٨١/٢.

(٢٩) العسقلاني، الإصابة، ١٢٠/١.

(٣٠) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، ٢٥٥/٢-٢٨٠.

(٣١) المصدر نفسه، ٢٨٠/٢.

(٣٢) بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص٩٦.

(٣٣) البلاذري. أحمد بن يحيى بن جابر، (ت:٢٧٩هـ)، فتوح البلدان. مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى. مصر ١٩٥٩، ص٢٤١.

(٣٤) الشيبي، كامل مصطفى، محاضرات في الزهد والتصوف الإسلامي، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٧٣.

* الاتجاه الروحي في المعرفة

(٣٥) عفيفي، التصوف الإسلامي، ص٨٣.

(٣٦) الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت:٣٢٤هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق ريتر اسطنبول، ١٩٢٩، ص٢٣١-٢٤٠.

(٣٧) الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ص٢٨٥.

(٣٨) بدوي، عبد الرحمن، شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة بلا تاريخ، ص٣.

(٣٩) ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية. القاهرة، ١٩٥٦، ١٦٧/١.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

(٤٠) المصدر نفسه، ١٦٧/١.

(٤١) حلية الأولياء، ١٣١/٢-١٣٢.

(٤٢) الطبقات الكبرى، ٢٩/١.

(٤٣) كيلاني، قمر، في التصوف الإسلامي، مفهومه، تطوره وأعلامه، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٢، ص٤١.

(٤٤) جمهرة الأولياء، ص٨٠.

(٤٥) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، تحقيق حمد فاخوري، ط١، دار الوعي، حلب ١٩٧٣، ٢٣٣/٣.

(٤٦) المنوفي، جمهرة الأولياء، ٨٤/٢.

(47) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ٢٣٤/٣.

(٤٨) المصدر نفسه، ٢٦٨/٣.

(٤٩) عفيفي، تاريخ التصوف في الإسلام، ص٤٢.

(٥٠) التصوف الثورة الروحية، ص١٢٢.

(٥١) التفتازاني، أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦، ص١٢٢.

* الإمام مالك بن دنيار البصري من كبار زهاد البصرة روى عن انس بن مالك من أقواله: (خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب ما فيها قالوا: وما هي يا أبا يحيى؟ قال: معرفة الله) ينظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان و أنباء الزمان، ٤٤٠/١٠، ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي، (ت:٩٨٦هـ)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشار، بغداد، ١٩٧٧، ص٨١.

** عبد الواحد بن زيد. كان من العباد الزهاد، واعظا رائدا ومن كبار وعاظ البصرة وصوفيها، ومن كبار القوم وأعاظم الصوفية له كرامات ظاهراً، ووقائع باهرة. انظر: السلماني، التعريف بالحب الشريف، ص١٦٩، المناوي، عبد الرؤوف، الكوكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، مطبعة دوسة، القاهرة، ١٣٥٧هـ، ١٣٥/١.

(٥٢) المنوفي، جمهرة الأولياء، ٨٤/٢.

(٥٣) ماسنيون، خطط الكوفة، ترجمة وتعليق تقي بن محمد، صيدا، ١٩٣٩، ص١٢.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

(٥٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨٠.

(55) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

(56) الأصفهاني، الأغاني، ٨/٣.

(٥٧) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت:٢٥٦هـ)، الصحيح، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، بيروت، بلا تاريخ، ٦٨/٣.

(٥٨) ماسنيون، خطط الكوفة، ص١٢.

(٥٩) السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت:٥٦٢هـ)، الأنساب، تقديم عبد الله عمر البارودي، بيروت، ١٩٨٨، ص١٥٨.

(٦٠) النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ٢١٧.

(٦١) الشيبي، الصلة بين التشيع والتصوف، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٦٢) الزبيدي، محمد حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، في القرن الأول الهجري، القاهرة، ١٩٧٠، ص٤٤.

(٦٣) النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ٢١٩/٣.

(٦٤) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ١٣٣/١.

(٦٥) المنوفي، جمهرة الأولياء، ص٦٧.

(٦٦) ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ٦١٤/١.

(٦٧) النشار، نشأة الفكر الفلسفي، ص٢٤٤.

(٦٨) النشار، المصدر نفسه، ص٢٢٤.

(٦٩) الشيبي، الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٠، ص٢١.

(٧٠) جامي عبد الرحمن نعمان، الأنس، كلكتا، ١٨٥٩، ص٣٤.

(٧١) الشيبي، المحاضرات ألقيت على طلاب كلية الآداب جامعة الكوفة، ١٩٧٣، ص١٦.

(٧٢) الشيبي، المحاضرات ألقيت على طلاب كلية الآداب جامعة الكوفة، ١٩٧٣، ص٢٠.

(٧٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

(٧٤) المصدر نفسه، ص٣٠.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kufa
Journal of Jurisprudence Faculty / An'najaf
(Editorial boards)
مجلة كلية الفقه
مجلة علمية فصلية محكمة
تصدر عن كلية الفقه / جامعة الكوفة - العراق
ISSN (Print): 1995-7971
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
مجلة كلية الفقه /النجف الأشرف
(هيأة التحرير)

(٧٥) الشيبي، محاضرات، ص٣٠.

(٧٦) الشيبي، محاضرات، ص٣١

(٧٧) المصدر نفسه، ص٣٢.

(٧٨) أبو العلا عفيفي، التصوف والثورة الروحية في الإسلام، ص٢٨-٢٩.

* جابر بن حيان الكوفي (ت:٢٠٠هـ) وذكرت دائرة المعارف البريطانية انه أبو موسى جابر بن حيان، ويسود الاعتقاد وتحقق الأدلة على انه من قبيلة أزد، القبيلة العربية التي قطنت جنوب الجزيرة العربية، واستوطن بعضهم الكوفة، بعد ان تهدم سد مآرب، وقد أبدت دائرة المعارف الإسلامية. حيث ذكرت ان أبو موسى جابر بن حيان الكوفي الأزدي، صاحب كيمياء، عربي مشهور، وليس هناك مصادر تشير إلى انه فارسي، بل عربي، واسم أبيه عبد الله الكوفي. وذكرت الموسوعة الدولية ان جابر بن حيان، كيميائي عربي، مشهور، في القرآن الثامن الميلادي. وكان والده (افر اباذي) صيدلاني في الكوفة تتلمذ على يد (حرب الحميري) الذي كان مخلصا في الدعوة العباسية وقد حكم عليه بالإعدام تأثر بآراء الإمام جعفر الصادق ودرس بعض العلوم الدينية على يديه، ثم دخل الصوفية ومال إليها. انظر ترجمته ودائرة المعارف البريطانية، ١٩٢٩، ص٨٣.

كحالة، رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دمشق ١٩٤٩، ٢٥/١. دائرة المعارف الإسلامية، ٢٢٦/١-٢٢٨.

جابر بن حيان، دائرة المعارف الإسلامية، ٢٧/٢.

الزركلي، خير الدين، قاموس تراجم الأعلام، ط٥، ٩٠/٢.

الموسوعة الدولية، ١٩٦٤، ص٤٨٠.

فرديناد نرتل، معجم أعلام الشرق والغرب، مادة ج، ص١٢٣.

(٧٩) مفاتيح العلوم، ص٧١.

(٨٠) كيلاني، في التصوف الإسلامي، ص٤١.

(٨١) المناوي، الكواكب الدرية، ص١٠٩.

(٨٢) بدوي، رابعة العدوية، شهيدة العشق الإلهي، ص١٠٩.

(٨٣) المصدر نفسه، ص١٦١-١٦٢.

(٨٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٨٥/٢.

العدد: ٤
السنة: ٣
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠

(٨٥) القشيري، الرسالة القشيرية، ص٢٨.

(٨٦) أمين، ظهر الإسلام، ص١٣٤.

(٨٧) كيلاني، في التصوف الإسلامي، ص٦٥.

(٨٨) الحياة الروحية في الإسلام، ص٧٩.

(٨٩) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٣٨/٤.

(٩٠) بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي، ص١٤٥-١٤٧.

(٩١) ابن نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء، ١٥٨/٥-١٥٩.

(٩٢) بسيوني، نشأة التصوف، ص١٤٨.

DOI: https://doi.org/10.36324/fqhj.vi4.8369

Journal of Jurisprudence Faculty by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.
مجلة كلية الفقه – جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠